الفصل الأول

«وهكذا تعانق الإيمان مع الشموخ العربى وإباء الصحراء فى قلب شاب من أكثر من انجبتهم هذه الأرض اخلاصا وولاء لها هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، ليصنع ثلاثتهم تلك الملحمة التاريخية التي اعادت للجزيرة العربية وجهها المشرق الذي كان لها يوما منذ ألف وأربعمائة عام».

معالي د. فؤاد الفارسى

الفصل الأول

سياسيّ الصحراء

يذهب «كارل دويتش» Deutsch إلى أن هناك عوامل ومؤثرات يتسنّى لها إحداث تغيير فى الصور القائمة. وهى ليست قاصرة على كمّ المعلومات التى تتدفق على الفرد؛ ذلك أن هناك من الأحداث Events ما يستطيع التأثير على الصور القائمة وتغييرها.

ولقد كثرت بعد الحرب العالمية الثانية كتابات الغربيين فى موضوع الأمم والعقائد التى كان لها شأن فى «مضطرب الأفكار والنزعات بين المعسكرين المتقاتلين، ثم كان لها شأن مثل هذا الشأن فى ميادين التنافس بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية؛ وبخاصة ما كان مرتبطا بالدواعى النفسية التى تمليها العقائد الدينية على أنصار الفريقين.. واستتبعت كثرة الكتابة فى موضوع الإسلام والأمم الإسلامية، لأن الإسلام دين ونظام اجتماعي، وله بهاتين الصفتين علاقة بما ينشر اليوم من المذاهب العامة فى شئون السياسة والاجتماع[1].

وكتاب الغرب ـ حين يكتبون عن الإسلام والمسلمين ـ يتفاوتون فى قيمة الكتابة؛ ولكن تفاوتهم ـ على حد قول أستاذنا العقاد رحمه الله ـ تفاوت على حسب الدراية والمعرفة؛ لأنهم طوائف مختلفة لا تتفق فى الوجهة ولا فى الخلق ولا فى الاستعداد.. فمنهم المبشرون الذين ينحرفون عن الصواب اضطراراً واختياراً بباعث من التعصب وباعث من حكم الصناعة أو الحرفة؛ لأن التبشير عندهم منفعة يعيشون عليها ويحرصون عليها حرصهم على القوت والجاه.. وممن يكتبون عن الإسلام والمسلمين فى الغرب أناس يخدمون السياسة الغالبة على دولهم ويصطنعون لغة الدعاية تارة؛ ولغة الدهان تارة أخري.. ويكتب عن الإسلام والمسلمين فى الغرب طلاب المعرفة من المستشرقين الذين نشأوا فى العصر الحديث بمعزل عن دوائر التبشير ودوائر السياسة؛ ومنهم من ينشد الرأى خالصاً لوجه الحقيقة العلمية. ويكتب عن الإسلام والمسلمين فى الغرب أناسٌ يتشيّعون له بمقدار ثورتهم على سلبيات مجتمعاتهم؛ فهم يتطلبون محاسن الشرق؛

(١) عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام ـ القاهرة ـ كتاب الهلال ص٧.

ويقابلون بهـا مساوىء السلطة التى يثورون عـليها فى الغرب؛ ولا يندر فيـهم من ينصف الإسلام ويهتدى إلى محاسنه السمحة، وإن لم يُدن به ولم يكن على دين غيره.

ومن حقنا ـ كـما يقول العقاد ـ أن نعـرف ما يقال عنا ـ وأن نعرف كـل قول من تلك الأقوال بقيمته وقيمة من يصدر عنه، لأننا قد نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها «كما ينظر إليها الـغرباء عنا»؛ وعرفنا مبلغ الصدق والفهم فيمـا يصفوننا به عن هوي، أو عن دراية وحسن نية. وكثيرا ما قال السيد **جمال الدين الأفغانى** ـ فى القرن الماضى ـ: إن الغربيـين يستمدون فكرتهـم عن الإسلام من مجرد رؤيتـهم للمسلمين؛ فـإنهم يرون المسلمين «مـتخاذلين ضعفاء أذلاء مستكـينين؛ فرّقت بينهم الأهواء والـشهوات وقعدت بهم الصغائر، وانصرفوا عن عظائم الأمور، وأصبحوا مستعبدين مستذلين». وهكذا ينظر بعض الغربيـين إلى المسلمين فى حاضرهم؛ وينسون عظمة المسلمين وقـوتهم أيام كانوا مستمسكين بالإسـلام، وأيام كانت الدنيا لهم.. ولعل المسلمين يعـودون إلى دينهم صافيًا نقيًا، ويستمسكون به فيكونون مرآة حقيقية يتمثل فيها الإسلام قويًا ساميا.

ولقـد أدرك **الملك عبدالـعزيز آل سعود** منـذ البداية هـذا المعنـى العميـق؛ الذى يقتضى توحيـد الجهود الإسلامية؛ **التوحـيد الذى دعا إليه الإسـلام فى صور لا حصر لها**؛ وبأساليب لاحدّ لتنوعها.

يقول ناتنج: «بدأ ابـن سعود حياته بين قوم خلفتهـم الحضارة وراءها، وكانت الأملاك التـى ورثها عن أسـلافه أرضا مبـاحة تقع بـين شمال بـلاد العرب وجنـوبها، حيـث كان الصراع من أجل البقاء ضد عناصر الطبيعة من القسوة بحيث تركها الغزاة الأجانب دون أن يمسوهـا باحتلال. كانـت أول جيوش الإسلام بقيـادة خالد بن الولـيد قد اجتازتـها إلى عمان وحضرموت واليمـن ، واجتازها القرامطة لكى ينهبوا مكـة. وكانت قفار نجد تعود بعد كل عبور إلى خوائها المطبق. وكان البـدو الرحل السريعى الحركة هم وحدهم الذين استطاعوا الوجود المحدود فى فيافيها الموحشـة القاتلة. ولكن ابن سعود استطاع أن يشكل أول دولة عصرية مـن القبائل الرحل وأن يصبح مـع الزمن قوة يحسب حسابهـا فى يقظة بلاد العرب من جديد.

«ولد ابن سعود فى عام ١٨٨٠م من نسل محمد بن سعود الذى ناصر محمد بن عبدالوهاب الداعى إلى العقيدة السلفية، الشديد التمسك بالدين، والذى أطلق اسمه الذهب (مناجم الملك سليمان) القريبة من (المدينة). ويختتم

أصبح ابن سعود هو المسيطر على نجد بأكملها. وفى مستهل عام ١٩١٤م خاض معركة مع قبائل الحسا على الخليج العربى، وكانت تناوشه بالهجمات المتوالية بتحريض من الأتراك. وقد استطاع مع قوة من ستمائة وهابى مباغتة الحامية التركية فى عاصمة الحسا، وتم توطيد الهدوء بين القبائل، وتهيأ لابن سعود أن يسيطر على ساحل الخليج العربى من الكويت إلى البحرين. بل إن الباب العالي، تجاوز الآن عن هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية، ولم يعد ابن سعود يتعرض لمضايقات من جانب الأتراك.

بيد أن نجاح ابن سعود على هذه الصورة ما لبث أن أثار اهتمام قوة عالمية أخرى هى بريطانيا العظمي، التى كانت سياستها حتى ذلك الحين قائمة على مد مجال نفوذها حتى الخليج العربى لمواجهة السياسة الألمانية الزاحفة نحو الشرق، وبعد امتداد الأرض السعودية حتى شواطىء الخليج العربى حول البحرين والتحالف مع الكويت، فإن الأمير سعود يمكن أن يكون صديقًا نافعًا أو عدوا متعباً. وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى وأصبحت تركيا العدو الحقيقي، سعت بريطانيا إلى عقد معاهدة تحالف مع ابن سعود للحصول على مساعدته ضد الأتراك. ولكن الأمير الحذر لم يقبل أى تورط، وكل ما وافق عليه هو التزام الحياد مقابل اعتراف بريطانيا به حاكما على نجد والحسا مع الدفاع عنه ضد أى هجوم تركي، وتزويده بالبنادق والمال.

ولم يلبث ابن سعود بعد انتهاء الحرب وزوال التهديد التركى أن ـ استأنف حروبه الخاصة، فاستولى فى الجنوب على عسير الواقعة بين الحجاز واليمن. وفى عام ١٩٢١ استولى على الحائل عاصمة الرشيديين ووضع نهاية لهم. وفى السنة التالية استولى على الجوف ووادى سرحان وهى معاقل قبائل نورى شعلان أحد أمراء بلاد العرب العظام الأربعة».

ويؤكد التاريخ أن الملك عبدالعزيز يرحمه الله ـ كان ـ كما يقول الأستاذ محمد

حسين زيدان: «يعرف خطورة التوسع فى الأرض وخطورة الحرب مع إمارة عربية، تجنب ذلك مع الكويت ولم يمارس ذلك فى الخليج حتى مشكلة البريمى لم تكن بإرداته فقد تبرأ منها وكم كان مرنا متسامحا مع جيرانه. بل إنه سالم الإمام يحيي ومنع استمرار الحرب بينهما. بل وأمر **الأمير فيصل** حين ذلك ألا يبقى فى الحديدة، بل يسلمها إلى **الإمام يحيي**. فالتوسع فى الأرض لم يكن من رغائبه وطموح العبقرية ليس جموحا وإنما هو مسايرة الواقع واستغلال الواقع».

وفى ذلك اتساق مع شخصية الملك عبدالعزيز، الذى قال فى أكثر من مرة: «ليس لدينا أحب من السلام يغمر هذه الربوع، فنحن لسنا طالبى حرب ولا نشهر سلاحنا إلا فى وجه من يبادرنا بالسلاح. لقد آن لهذه البلاد الحبيبة أن تعرف السكينة وتنعم بالسلام، فلنوحد صفوفنا وسلاحنا وكلمتنا. وإذا كان لابد للسلاح الغربى من أن يشهر فليشهر فى وجه الأجنبى دفاعا عن العربى والعروبة والإسلام»[1]. ذلك أن الملك عبدالعزيز رحمه الله، كان عربيًا أصيلا وكان أول من رفع راية العروبة يوم لم تكن «العروبة» سوى كلمة جوفاء لا رمز لها ولا معنى، فجاء **عبدالعزيز بن عبدالرحمن** يرفع رايتها ويوطد أركانها ويجعل منها رمزا للبطولة والشهامة والنبل والإخاء»[2]. ومن أجل هذا دعا ابن سعود إلى مؤتمر من الدول الإسلامية فى يونيو ١٩٢٦م لمناقشة الجوانب الإسلامية فى إدارة الحجاز.

من هذه البداية فى الاتصال الدولى مضى ابن سعود يعقد المعاهدات ويتبادل التمثيل السياسى مع فرنسا وروسيا وهولندا وإيطاليا وتركيا وإيران، ولكنه حرص على إبقاء كل البعثات الأجنبية فى جدة البعيدة بقدر ثمانمائة ميل على عاصمته فى الرياض[3]، وقد أنشأ ابن سعود خطا حديديا وميناءين وعدة قصور جديدة ومحطة للإذاعة، وطرقا رئيسية جديدة، ومحطة لتوليد الكهرباء فى أربع مدن، وأنابيب مياه عذبة لتزويد جدة، وخط طيران، وأعاد فتح مناجم الذهب (مناجم الملك سليمان) القريبة من (المدينة). ويختتم

---

(١) بيار روفائيل، صقر الصحراء، بيروت، منشورات حمدو محيو، ١٩٧٢، ص٢٣٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٨.

(٣) أنتونى ناتنج: العرب حضارة وتاريخ، ص١١١.

الكاتب الأوربى «ناتنج» حديثه بقوله: «**ومهما يكن فإن ابن سعود الذى حكم مملكته مدى نصف قرن، قد استطاع أن ينشيء دولة حديثة وموحدة من قبائل متنافسة متخلفة من العصور الوسطي، وأن يقودها نحو القرن العشرين بعزم لاينثني**».

وهذه المملكمة الموحدة تضم إلى جانب نجد والحجاز:

منطقة الإحساء، ومساحتها ١٠٣,٦٠٠ كيلومترا مربعًا وتتميز أهميتها لوقوع آبار النفط فيها. ولكونها تقع على الساحل الشرقى وفيها بقاع زراعية غنية كالقطيف التى تكثر فيها بساتين النخيل، وعاصمة هذه المنطقة **الدمام** وهى ميناء الساحل الشرقي، ومن مدنها المهمة **الظهران** وهى مركز الزيت الرئيسى فى المملكة(١).

ويقول الزركلى إن هذه المقاطعة قد اتسمت بطابع خاص فى بلدان الجزيرة: خصبًا، وموقعًا، وأحداثًا.

عُرفت قديمًا باسم «هَجَر» و«البحرين» و«الحسَاء» سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢م)؛ و«الحَسَاء» زارها **ابن بطوطة**، حوالى سنة ٧٤٠هـ (١٣٤٠م) وقال: «هجر» وتسمى الآن بالحسا. أهلها عرب من عبدالقيس بن أفْصي.

وأشهر ما كان فيها من أحداث التاريخ قيام دولة «القرامطة» فى العصر العباسي. عاشت حوالى مئة وتسعين عامًا(٢).

ويطلق اسم «الأحساء» اليوم، على الإقليم الممتد على الشاطىء الغربى من الخليج، ابتداءً من حدود قَطَر ومشيخات الساحل العُمانى فى جنوب الخليج، إلى حدود الكويت شمالاً. ويفصلها الصمّان غربًا عن صحراء الدهناء. وكان العثمانيون لما يئسوا من التسلط على نجد، فى أواخر عهدهم سموا الأحساء «متصرفية نجد».

---

(١) د. محمد على رضا الجاسم: المرجع السابق، ص١٤.

(٢) كان ابتداء دولة القرامطة فى هجر، سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١م) على يد الحسن بن بهرام الجنابى المتوفى سنة ٣٠١هـ (٩١٤م)، انظر ترجمته فى الأعلام ٢: ١٩٩ ونقل الأستاذ حمد الجاسر، فى مقدمة «تاريخ الإحساء» عن شراح «ديوان ابن المقرب» أن زوال القرامطة كان سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦م)، على يد عبدالله ابن على العيوني.

وامتازت بوفرة مياهـها وكثرة عيونها. وبين هذه العيون ما هـو «معدني» حار. وتدفق النفط فيها، أيام الملك عبدالعزيز.

قاعـدتها ـ عـلى عهـد عبدالـعزيز ـ «الهَـفُوف» ووردت فى شـعر بعـض المتأخـرين «الهُفْهوف» وهى أغنى البلاد العربية السعودية واحات وزراعة وتمراً.

وتتبع الهفوف، مـدن صغيرة وقرى كثيرة، من أهمها: أ ـ المُبَرَّز: سـميت بذلك لبروز حاج الأحساء إليها. قديماً واجتماعهم فيها. ب ـ والعقَير ويلفظونهـا العُجَير. كانت مرفأ الحسا، وتبـعد عنها مسافة ٨٥كـيلومتراً. قيل إنهـا هى «جرعاء» القديمة. جـ ـ والـقَطيف. يقال: إن القرامطة، لمـا سرقوا الحَجَر الأسود، وضعوه فيها. وهى الآن مركـز إمارة تتبعها قرى كثيرة، منها: جزيرة تارُوت ودارِين. ظهر النفط فى القطيف، واستثمر سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م).

ويتبعها من سكان البادية:

١ ـ قبائل مـن بنى «مرة» أكبر قبيـلة فى شرقى الجزيرة الـعربية[١] قال تسيغر[٢]: تعيش قبائل مرة فى مساحة تقارب مساحة فرنسا.

٢ ـ كثير من قبائل العجمان» منازلهم بين الأحساء والكويت[٣].

٣ ـ بطون من «المَنَاصير» ونسبتهم إلى جدّ لهم يدعى «منصـور بن قيس» وهو من أوسع القبائل ثروة، بما يملكون من إبل ومزارع[٤].

٤ ـ العوازم: منازلهم بين الأحساء والكويت[٥].

٥ ـ بعض قبائل مطير.

---

(١) انظر عرض حكومة المملكة العربية السعودية ١: ٥٣ ـ ٥٨.

(٢) رمال العرب ٢٥٢.

(٣) انظر قبائل العرب ٢: ٧٥٨.

(٤) راجع عرض الحكومة ١: ٥٩ ـ ٦٧.

(٥) انظر البادية، للراوى ١٧٧ زقلب جزيرة العرب ١٨٣.

٦ ـ أكثر «بنى هاجر» وهم قطحانيون كالمناصير، منازلهم فى جنوب العُجمان حتى بلاد قطر(١).

٧ ـ كثير من «بنى خالد» وجلهم من عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر، دخل فيهم كثيرون من غير عُقيل. فأصبحوا قبائل شتي. منازلهم على ساحل الخليج ما بين وادى المُقَطع فى الشمال ومقاطعة البَياض فى الجنوب. ويتوغلون حتى نواحى الصمان فى الغرب.

٨ ـ الرشايدة: قبيلة، منها أدلاء اشتهروا بمعرفة قفار الدِبْدبة ومياهها.

وقامت فى بلاد الأحساء، بعد تدفق النفط، حركة عُمرانية أنشئت فيها مدينة «الظهران» وجعلت مقاطعة.

منطقة عسير، ومساحتها ١٠٣,٦٠٠ كيلومترا مربعًا أيضا فتقع فى جنوب المملكة وتحازى البحر الأحمر فى سهل ساحلى مرجاني، وهذه المنطقة مأهولة بالسكان وتكثر فيها السهول الصالحة للزراعة كما تكثر فيها السيول والأمطار. ويشتهر (وادى نجران) بزراعة الكروم والبن والسكر وكذلك (وادى بيشة)(٢).

ويتخلل هذه المناطق صحارى واسعة جدد يذكر من بينها (صحراء الربع الخالي) وصحراء الدهناء وصحراء النفوذ، وكذلك هناك بوادى نصف صحراوية متعددة ما بين المناطق عبر شمال وجنوب المملكة وبتماس مع السواحل.. كذلك يتخللها جبال وهضاب وسهول. فجبالها سلسلة شاهقة تمتد على طول المملكة قريبة من الساحل الغربي، وهضابها كبيرة تتجه نحو الساحل الشرقى ونحو الجنوب بانحدار وئيد يتصل بالربع الخالي. وسهولها طويلة ضيقة تمتد على محاذاة الساحل الغربى ويطلق عليها سهول تهامة، ينتشر ما بين هذه الأراضى فى مختلف أقسام المملكة مناطق جيولوجية غنية بالزيت والمعادن والخامات(٣).

---

(١) انظر طلب جزيرة العرب ١٢٠٠ وقبائل العرب ٣: ١١١٢.

عن خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة فى عهد الملك عبدالعزيز، ص٨٧٤ ـ ٨٧٥.

(٢) د. محمد على رضا الجاسم: المرجع السابق، ص١٤.

(٣) المرجع نفسه، ص١٥.

لهذه التشكيلات أثر كبير وفعال فى تكوين طبيعة المناخ والتربة يظهر فى النواحى التى تعكس المؤثرات فى الوضع الاقتصادى على القطر، ودرجات الحرارة لأرجاء المملكة متمايزة أيضا، ولكنها على العموم تتدنى إلى درجتين مئويتين فى منتف الشتاء، وفى الأنحاء الجنوبية والغربية والشرقية، بينما الأرجاء الوسطى تنخفض فيها درجات الحرارة إلى الصفر شتاء، بينما فى الصيف ترتفع درجة الحرارة فى كافة المناطق إلى الأربعين وما فوق عدا المناطق الجبلية والساحلية حيث تحافظ الأولى على درجات معتدلة وتصاحب الثانية معدلات رطوبة عالية كما يلاحظ ذلك على الساحلين بصورة خاصة.

ولذلك يسجل الباحثون الملاحظتين التاليتين[1]:

الأولي: أن طبيعة المملكة العربية السعودية تشتهر على العموم بمناخ قارى. ومع ذلك يمكن نعت ظروفها الطبيعية والمناخية بعدد من الأوصاف منها: المناخ الصحراوى فى معظم أجزاء البلاد، وشدة الحرارة فى أغلب المناطق، وسعة الأراضى الصحراوية الرملية وجفافها.

الثانية: أن للوضع الجغرافى المتمثل فى تكوين طبيعة الأراضى .كما أن فى ندرة المياه والأمطار، وفى وفرة النفط والمعادن والخامات دخلا كبيرا فى التشكيل الزراعى والصناعى وحركة النقل والتجارة وحركة الإعمار والإنماء والإنتاج بالإضافة إلى أثره فى النمو السكانى وتوزيعه فى المملكة.

هذه الصورة السريعة لجغرافية المملكة العربية السعودية، إذا نظرنا إليها من حيث ارتباط مفهوم الجغرافيا بمفهوم الإنسان، تيسر لنا أسباب الحصول على «مفتاح الشخصية» للمملكة العربية السعودية من جهة، وللملك عبدالعزيز من جهة أخري، فلقد ذهب أنتونى ناتنج كما تقدم إلى أن **الملك عبدالعزيز بن سعود** هو «سياسى الصحراء» وهنا نجد أن ـ الشخصية الإنسانية تضفى على الشخصية الجغرافية مفهوما يجعل من

---

(١) المرجع نفسه، ص١٦.

الإنسان «كساكن الإقليم L'homme - habitant الأول والأخطر، ليس فقط أبرز وأوقع وأكثف وأهم شيء فيه كما هو أجله وأرفعه، ولكنه أيضا أفعل وأقوى عامل فى تشكيله وتغييره وتثميره كما هو فى التعبير عنه»(١).

وإذا كانت الشخصية الإقليمية لا يسهل تركيزها فى معادلة موجزة(٢)، ولاسيما إذا كانت غنية خصبة كشخصية المملكة العربية السعودية، فإننا سنتخذ من تحليل «عبقرية الصحراء» سبيلا لفهم مفتاح هذه الشخصية الغنية، ذلك أن ابن بطوطة يحكى قصة صديق له، ضلّ طريقه فى جبل حراء، فاشتد عليه الحر ونفد ما عنده من ماء وزاد، فلجأ إلى حجر كبير واستظل بظله، وأقام على هذه الحال من الجهد والعطش، والغربان تطير فوق رأسه تنتظر موته. فلما أتى المساء «وجد فى نفسه قوة وأنعشه برد الليل»، فقام عند الصباح على قدميه ونزل إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس، ولم يزل ماشيا حتى بدت له خيمة للعرب فقصدها، وما أن وصل إليها حتى سقط على الأرض ولم يستطع النهوض، فسقته صاحبة الخيمة مما كان عندها من ماء، ثم حمله زوجها إلى مكة «فوصلها عند العصر من اليوم الثانى متغيرا كأنه قام من قبر» على حد قوله(٣).

ويصف «تيسيغر» رحلته فى صحراء العرب فيقول: «وقد مشيت وراء مجرى للمياه، متشوقا لأرى ما يقع تحت بصري، فوجدت نفسى واقفًا بين عالمين: إلى جهة الجنوب كانت سهول خضر حيث ترعى المواشي، نباتات وأشجار ممتدة، بينما على مرمى حجر من الشمال، كانت هناك صحراء قاحلة من رمال وصخور وبعض بقايا العشب الذابل، وكان التغير مفاجئا، كما هو بين السهول الخصبة والصحراء فى وادى النيل»(٤).

عبقرية الصحراء إذن تجمع بين الشيء ونقيضه، الحرارة والشمس من كل جانب، والهواء الجاف من كل جانب «قيل لأعرابى كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل

---

(١) د. جمال حمدان: شخصية مصر، ص٣٣.

(٢) د. جمال حمدان: نفس المرجع، ص٣٣.

(٣) مهذب رحلة ابن بطوطة ١ ، ١١٧ ـ وقد ولد ابن بطوطة فى طنجة سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) وتوفى سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٧م) ـ فى د. عبدالحميد إبراهيم: الوسطية العربية، ص٣٥.

(٤) ولفريد تيسيغر، ترجمة لجده هاجر وإبراهيم عبدالستار: ومال العرب ص٤٨ د. عبدالحميد إبراهيم، المرجع السابق، ص١٥.

كل شيء ظله؟ فقال: وهل العيش إلا ذاك؟ يمضي أحدنا ميلا فيرفضّ عرقا كأنه الجمان، ثم ينصب عصاه ويلقى عليها كساه وتقبل الرياح من كل جانب وكأنه إيوان كسري»[1].

وتصور عبقرية الصحراء لوحة «يتجاور فيها الليل والنهار، الحر والبرد، الأبيض والأسود، الوضوح والسر، الحقد والشعر، القتل والتسامح، الغل والحب، الشمس والظل. إنها أشياء تتجاور ولا تختلط، لا أدغال ولا غابات ولا أشجار كثيفة ولا ظلال عميقة والشمس تكشف كل شيء، والبدر يفضح كل ستر والإنسان العربى يعيش التجربة ـ فى كلتا الحالتين ـ بعمق وحتى المنتهي»[2].

والعلاقة بين البحر والصحراء قوية، وهى التى جعلت العربى قادرا على وصف البحر وأهواله بمقدرة، دون أن نبحث عن علة هذه المقدرة فى أن العربى كان يسافر ويشاهد البحر و،يركبه كما قال بعض النقاد، فالعربى ـ كما يقول د. عبدالحميد إبراهيم[3] ـ يعيش فى الصحراء وكأنه يعيش فوق البحر، إن الصحراء تمتد كبحر خامد فى رمال متموجة كما يقول «أنشتين»[4] ورياح السموم تجعل الرمال الناعمة تملأ الصحراء فيصبح كالبحر المزبد كما يقول ديفرجيه[5]. والقرآن الكريم يصف طبقات الظلمات كأنها بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج[6]، فالعربى إذن يعيش أهوال البحر وهو فى الصحراء، ومن هنا كان قادرا على وصفها غاية القدرة.

ولكنه كبحار مغامر لا تجعله الأهوال ينزوى على نفسه فى حالة من الإحباط والسكون، إن الأخطار تحيط به من كل جانب لو تشاغل عنها لأودت به، إنه سندباد الصحراء يعيش فى خطر وفى تحد للخطر فى الوقت نفسه، فسرعان ما يهب على فرسه، ويندفع كأنه إعصار ويوغل فى جوف الليل، ويقابل الأخطار وجها لوجه، إنه يتحدى المخاوف بالحركة العنيفة، وبالشجاعة التى تغطى على كل إحساس بالخوف. إن الشعر

---

(١) المحاسن والأضداد ص٧٨.

(٢) د. عبدالحميد إبراهيم: المرجع السابق، ص٣٨.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٩.

(٤) سام، وبريل أنشتين، ترجمة د. مصطفى بدران: الصحراء، ص٧٨.

(٥) حضارة العرب ص٥١.

(٦) سورة النور آية ٤٠.

العربى مليء بأمثلة كثيرة ـ وكثيرة جدا ـ عن العربى الذى يركب أهوال الطريق، ويغامر فى المفازة بناقته، إن أمرأ القيس تتحداه الطبيعة فيركب فرسًا، له اهتزام كغلى مرجل، وحركة كخذروف الوليد، تجعل الغلام الخف يزل عن صهواته، ويندفع فى الصحراء، وكأنه جلمود صخر حطه السيل من عل، ثم يدخل فى معارك مع الحيوانات يحاورها ويداورها حتى يعود منتصرا فى نهاية الأمر(١). وطرفة بين العبد حين يناديه المنادى فى صحراء مخيفة فإنه يركب ناقة كرأس الحياة المتوقد، وحين يحتضن الهم فى صدره فإنه يمضيه بعوجاء، مرقال تروح وتغتدي(٢)، والحارث بن حلزة يستعين على همه بناقة زفوف كأنها هقلة(٣).

وقد قال ولفريد تيسيغر(٤) بعد اجتيازه رملة «الربض» فى الربع الخالى مشرقًا إلى أطراف «عبري» فى بلاد عُمان.

«وبينما كنا نقود جمالنا ونحن نهبط المنحدر، أحسست فجأة بطنين منخفض، أخذت

---

(١) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، ولد حوالى سنة ٥٠٠م، أى قبل الإسلام بنحو ثمانين عاما. أشهر شعراء الجاهلية وصاحب المعلقة المشهورة، كان يميل إلى حياة اللهو والشرب والغزل فى النساء. وقد طرده أبوه، فكان يسير فى العرب يطلب الصيد والغزل، ويكثر من شعر الفتيان والشباب. ثم تألبت قبيلة بنى أسد على أبيه فقتلته، وحين وصل الخبر إلى امرىء القيس وهو فى لهوه وشرابه قال قولته الشهيرة «اليوم خمر وغدا أمر». ثم تغير حاله وأخذ ينشد الشعر فى مقتل أبيه، وفى تهديد قاتليه ثم جمع القبائل وسار نحو بنى أسد وقاتلهم قتالا شديدا، وأكثر فيهم من القتل والجرح، ويقال إنه ذهب إلى قيصر الروم فأقام عنده، حتى وشى الواشون بينهما وأشاعوا أنه يتعشق ابنة قيصر وينشد فيها الأشعار، فدس إليه قيصر السم وتوفى حوالى سنة ٥٤٠م د. عبدالحميد إبراهيم: المرجع السابق، ص٤٠.

(٢) هو طرفة بن العبد البكري، أحد فحول شعراء الجاهلية، ومن شعراء المعلقات، ينتمى إلى بكر بن وائل، ولد حوالى سنة ٥٤٣م، نشأ فى البحرين مات أبوه وهو صغير، ورباه أعمامه، ومال إلى البطالة وقول الشعر، وتعرض به لهجاء الناس، وكان ممن هجاهم عمرو بن هند فأوعز ابن هند إلى عامل له على البحرين، فقتل طرفة وهو شاب لم تزد سنه على ست وعشرين سنة، ومات سنة ٧٠ قبل الهجرة، أى حوالى سنة ٥٥٢م.

د. عبدالحميد إبراهيم: المرجع السابق، ص٤٠.

(٣) هو الحارث بن ظليم بن حلزة من بنى بكر، من شعراء المعلقات، وقد أنشد معلقته فى حضرة الملك عمرو بن هند، ردا على عمرو بن كلثوم التغلبى ودفاعا عن قومه، توفى سنة ٥٣ قبل الهجرة، حوالى سنة ٥٧٠م.

د. عبدالحميد إبراهيم: المرجع السابق، ص٤٠.

(٤) رمال العرب ص١٧٢.

قوته تزداد، حتى أصبح كصوت طائرة تطير فوق رؤوسنا.. اندفعت الجمال مذعورة متفرقة، وهى تشدّ أرسانها، وتنظر وراءها إلى المنحدر فوقنا. وتوقف الصوت عندما وصلنا إلى القاع. كان هذا «غناء الرمال» والأعراب يصفونه بالزئير، وربما كانت هذه الكلمة أكثر تعبيرًا. فقد سمعته ست مرات خلال السنوات الخمس التى قضيتها فى هذه البقاع. وهو ناجم كما أعتقد عن انهيار طبقة من الرمال على وجه أخري. وقد وقفت مرة على حافة جبل، وابتدأ هذا الصوت عندما خطوت على الوجه المنحدر. وجدت فى هذه المناسبة أن فى وسعى أن أحول دون ازدياده أو أوقفه، وذلك بأن أخطو فوق سطح المنحدَر».

ويعقب الزركلي[1] على هذه العبارة بأنها حديث من شاهد الرمل وسمع عزيفه. وكان ممن رأى هذه الظاهرة قبله، فى مواضع أخر، شارلز «دوتي» البريطاني، وبينهما نحو ستين عامًا، وقال فى وصفها: إنها كثبان من الرمل الهدّار، تنهار طبقتها العليا تحت أقدام المارّة، فتخرج منها أصوات يزداد ارتفاعها، كالرنين الذى يحدثه قرع ناقوس ضخم.

وسمّى دوتى فى كتابه «رحلات فى بلاد العرب الصحراوية» أماكن لهذه الكثبان منها ما هو فى صحراء النفود. شمالى شبه الجزيرة، ومنها ما هو قرب مدائن صالح، عند تلّ يسمى «الحوارية» وأكثرها على مقربة من «مدائن صالح».

وبين تيسيغر ودوتي، بريطانيان آخران قاما باجتياز الرّبع الخالي، وسمعا صوت الرمال العازفة، أحدهما برترام توماس، صاحب الرحلة المسماة «العربية السعيدة» وكان دخوله تلك القفار. عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠ ـ ١٩٣١م) وشبه ما سمعه (فى تلال جديلة) بصوت صفارة الباخرة. والثانى أشهرهم جميعًا عندنا، المستر، أو الحاج «فلبي» كانت رحلته سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣٢م) ورأى تلك الظاهرة بالقرب من بئر «نايفة» فى الربع الخالى فقال إن أحد رجاله صعد قمة كثيب رملي، مرتفع نحو ٢٠٠ قدم، فصدر عن الكثيب صوت غليظ كأزيز الطائرة أو نغمات أرغن كبير. ويذكر فلبى أن أول مرة سمع بها هدير الرمال، كانت سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) فى تلال «بدر» بين المدينة المنورة وينبع.

---

(١) الزركلي: المرجع السابق ص ص ٨٩٦ ـ ٨٩٩.

هذا حديث الرحالين الإنجليز، الأربعة.

أما العرب المعاصرون، فاشتهر من خبرائهم ببقاع شبه الجزيرة الشيخ محمد بن عبدالله بن بليهد. وهو نجدي، كان في وقت من حياته دليلاً «محترفًا» وفي كتابه «صحيح الأخبار» ما يدل على خبرة في هذا الشأن[1] ولكن يظهر أنه لم يتوغل في الربع الخالي، أو لم يحسن الكتابة عنه. وقد كتب عن «أبرق الحنّان» كتابة من رآه، فقال: كثيب مرتكم. إذا ارتكمت رماله وتساقط بعضها على بعض من تحريك الرياح، سُمع له حنين، ولايزال الناس يسمعون ذلك إلى هذا العهد، ولا أشك في أن هذه الأصوات ناشئة عن نزول الرمل من أعلاه إلى أسفله[2]. ونقل ما في معجم البلدان[3] وهو: «أبرق الحنان ماء لبني فزارة. قالوا: سُمي بذلك لأنه يُسمع فيه الحنين، فيقال: إن الجن فيه تحنّ إلى من قفل عنها» وعلق ابن بليهد على ذلك قائلاً: هذا كلام أهل الجاهلية، فأما كلام الأعراب فيقولون: إنا نبيت تحت هذا الكثيب، ونسمع فيه الأصوات المزعجة، المختلفة الجرْس، ولا نشك في أنها أصوات الرمال إذا تهايل بعضها على بعض. ثم قال: ولا أعرف في نجد كثيبًا له حنين وأصوات إلا هذا الكثيب. وعلق الأستاذ **حمد الجاسر** بأن أبرق الحنّان، قرب بدْر.

وعرف قدماء العرب مواضع في شبه الجزيرة، من هذا النوع. أشهرها «العزّاف» قال الزمخشري[4]: «العَزّاف، رمل لبني سعد، وهو أبرق العزاف، وفيه الجنّ يعزفون. وهو يسرة عن طريق الكوفة، قريب من زرود. وقال ياقوت[5]: أبْرَقُ العَزاف؛ ماء لبني أسد ابن خزيمة، في طريق القاصد إلى المدينة من البصرة. قالوا: وإنما سمي العزاف لأنهم يسمعون فيه عزيف الجنّ. وأورد شعراً في ذلك. ومنها «رمل عازف» لم يذكروا موضعه وإنما ورد في قول ذي الرُمّة:

وعيناء مبهاج كأن إزارها على ... واضح الأعطاف من رمل عازف

(١) طبع كتابه في القاهرة سنة ١٩٥١ ـ ٥٣، في خمسة أجزاء

(٢) صحيح الأخبار ٢: ٧٠.

(٣) طبعة بيروت ١: ٦٧.

(٤) الجبال والأمكنة والمياه ١١٢.

(٥) معجم البلدان ١: ٦٨ وانظر «المناسك وأماكن طرق الحج» ٣٢٩.

وفى رسالة خاصة بعث بها فلبى من الرياض إلى صديقه «جارى أوين» فى أرامكو بالظهران، تاريخها ذو الحجة ١٣٦٩ (٢١/ ٨/ ١٩٥٠م) يذكر أنه أرسل إليه نموذجًا من الرمل «المغرِّد» من «بدر» وأنه عرف بظاهرة من هذا النوع فى «النايفة» من بقاع الربع الخالي، وفى «أبى الدفوف» على بضعة أميال من «رنية» جنوبًا. وهو يعتقد أن جبل «الناقوس» على سفح سيناء هو من هذا القبيل؛ وقد ذكر ذلك اللورد كرزون فى كتابه «قصص سياحة».

ويقول فلبي: إن تل الرمال العازفة، فى بدر، يعرف باسم «الدف» أو «العدوة الدنيا» ويرتفع إلى نحو ٥٠٠ قدم من قاعدته، وطول قاعدته نحو نصف ميل من الشرق إلى الغرب، وواجهتها الجنوبية منحدرة جدا (١ فى ٧٥) ومقعرة قليلاً بينما الجهة الشمالية على شكل حدوة فرس. وهو من الرمل الخالص. والجهة التى خرج منها الصوت، هى الجنوبية من التل فقط. ويقول: والاعتقاد المَحَلى هو أن الصوت يبكى شهداء بدر المدفونين هناك.

ثم يقول: ومن الثابت أن ظاهرة «الغناء» هذه، كانت معروفة منذ ١٤ قرنًا. وربما كان للتل الرملى نواة من حجر بركاني، تشكلت كلوحة لترديد الصدي. وهو يعتقد أن سر «التغريد» مازال فى حاجة إلى البحث العلمى لمعرفته. اهـ.

ويظهر أن المتقدمين من العرب حاولوا كشف حقيقة هذا السرّ، فنرى ابن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ (١٣١١م)، يقول: العزف والعزيف صوت فى الرمل لايُدرى ما هو. وقيل: هو وقوع بعضه على بعض. ورمل عازف وعزّاف مصوّت[١] وفى شرح لديوان «جرير»: إذا تهدمت الرمال سُمع لها صوت. وهذا وما قبله هو ما يراه فلبى ودوتى وابن بليهد وتيسيغر جميعًا.

ولعل أصبح ما يقال فى تعليل هذه الظاهرة: إن الرمال إذا كانت خشنة وأكبر حجمًا من حبوب الرمال المعتادة، تخاللها الريح، فصدرت عنها أصوات كالصفير أو الزئير أو الحنين، سمّاها العرب عزيفًا وحنينًا.

---

(١) لسان العرب: مالدة عهزف.
قافلة الزيت. عن مجلة الجمعية الجغرافية ٨٥: ٣٦٩.
الزركلي: السابق، ص٨٩٩.

ومما كتب عن **الملك عبدالعزيز**، وبلاده، وحياته، كتاب «البلاد العربية السعودية» تأليف «كي.اس. تويتشل» متعاونًا مع «إدوارد ج. جورجي» طبع فى نيوجرسي، سنة ١٩٤٧م[١].

والمستر «تويتشل» من أكثر المستشرقين الأمريكيين اختبارًا للمملكة العربية السعودية، ومساهمة فى مشروعاتها الإصلاحية الحديثة.

قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام. تحدث فى أولها عن «مميزات البلاد السعودية» وفى الثانى عن «التطور الاجتماعى والسياسي» وفى الثالث عن «مركز البلاد السعودية فى الاقتصاد العالمي».

وشرح فى القسم الأول جغرافية البلاد والنواحى «الجيولوجية» فيها. والمظاهر الطبيعية، والزراعية، وثروة المراعي، والموارد الاقتصادية الثانوية، ثم موارد المياه فى مختلف المناطق، وخصوصًا الأجزاء الشرقية من المملكة. فالمواصلات.

وقال عن الحكومة: إنها وإن كانت فى الظاهر، «أو توقراطية» من عدة نواح، فإن الجهاز الحكومى للشعب العربى السعودي، وَضعه «أبويّ» تظهر فيه خصال ديموقراطية عديدة، وإن الملك يجعل الوصول إلى مجلسه فى ساعات معينة من النهار، ممكنًا للجميع. وبصفته «محكمة عليا» للاستئناف، فإنه يسمع الشكاوى التى يقدمها إليه الناس، حتى أقلهم مقامًا فى الهيئة الاجتماعية. وبهذا يستطيع بدوى بسيط أن يقف أمام سيد البلاد العظيم ويطلب منه إحقاق الحق فى قضيته.

ثم بيّن أن القرآن هو مصدر التشريع والقانون فى تلك البلاد.

ووصف الملك بقوله: «وهو فى العادة إنسانى ومتساهل، ويكون فى بعض الظروف شديداً حازماً. ويعتبر ابن سعود، باتفاق آراء الناس، رجلا ذا حكمة واستقامة. وقد زادت فى شهرته وشعبيته صفات العدل والكرم وحسن الضيافة».

وصف بعض عادات العرب، كإكرامهم للضيف، وقال: إن يوم الجمعة هو يوم

---

(١) ثم أضاف إليه مؤلفه زيادات، وأعاد طبعه بالإنجليزية سنة ١٩٥٣ وترجمه إلى السيد شكيب الأموى وطبع فى القاهرة سنة ١٩٥٥.

الراحة فى البلاد السعودية، وإن العرب رياضيون بطبعهم، ويعتبر ركوب الخيل والجمال وأمثالها، جزءاً من حياتهم؛ وعلى هذا ينشئون أولادهم. وإن رياضة الملك المحبّبة هى الصيد.

وتكلم فى الفصل الثانى من هذا القسم، عن تاريخ «آل سعود» بما ترجمته: «يقف ابن سعود فى مقدمة رجالات هذا الجيل، وهو معروف لدى أكثر العرب بـ«ابن سعود» فقط، وكان والده عبدالرحمن، سلطان نجد الشرعي، وأمه سارة بنت أحمد السديري. من قبيلة الدواسر التى تسكن فى الجنوب على مقربة من الربع الخالي. وجدّه الأسبق «سعود الكبير» تزعم القوات العسكرية الشديدة المراس التى اجتاحت شبه الجزيرة العربية، معلنةً العقيدة الإسلامية «السلفية» التى دعا إليها المصلح الكبير **محمد بن عبدالوهاب**. والعرب يرجعون إلى أصلين «قحطان، وعدنان والمفروض أن أبناء الأول سكنوا الجنوب، وكانت لهم المدنية القديمة فى اليمن وحضرموت، وأبناء الثانى سكان الشمال، ومنهم تسلسل آل سعود. ولد الملك **عبدالعزيز** فى نوفمبر ١٨٨٠ فى قصر بالرياض، ونما جسمه بسرعة وتعلم مبادىء الدين والعقيدة واستعمال البندقية فى سن مبكّرة. وكان فى صباه عصبيا سريع الغضب. وامتاز بالكرم وقوة الإنتاج، ومنحه الله ذاكرة واعية قوية، ووفاءً لأصدقائه يستحق الإعجاب. وحمل فى ريعان شبابه عبء الشئون الخطيرة، فقام بأعمال باهرة أفادت فى إعادة تأسيس بيت سعود».

وأوجز فى فصل آخر، تحت عنوان «قيام الدولة السعودية» المراحل التى مرّ بها حكم الملك منذ سنة ١٩٠٨ إلى أن استتب له الأمر نهائيا، بعد القضاء على ثورة الدويش. فبيّن كيف استولى على الأحساء وكيف حافظ على حياده فى الحرب العالمية الأولي، ثم الكفاح بينه وبين الشريف، وموقف بريطانيا المؤيد للشريف فى أول الأمر. وتخليها عنه فيما بعد..إلخ.

وفى فصل آخر، تحت عنوان «البلاد العربية السعودية فى العالم الحديث» شرح مدى تمسك **الملك عبدالعزيز** بصداقة الحلفاء، وأنه لو أراد لجعل مصير انتصارهم، فى الميزان، بما له من نفوذ بين المسلمين فى الشرق الأوسط والهند. وضرب مثلاً امتناعه عن

التأييد لثورة رشيد عالي. وتكلم عن اهتمامه بقضية فلسطين «التى رأى فيها المحكّر الوحيد لعلاقاته مع بريطانيا».

ـ أما كتاب جون فان إس فقد صدر قبل الأول، عنوانه «ملاقاة العربي» نشر فى نيويورك سنة ١٩٤٣.

أقام كاتبه (جون فان إس) مدة طويلة فى العراق، ووضع كتابه هذا للتعريف بالعرب بصفة عامة. وأفرد للملك عبدالعزيز فصلاً خاصًا، تحت عنوان «ملك الجزيرة العربية» قال فيه: «إذا كان لديك عشرة آلاف دولار، فى صندوق خشبى لا قفل له، وهو مربوط بحبل فقط. وأرسلته فى سيارة مع سائق غير مسلح، ليسافر مسافة ألف ميل فى اتجاه معين هنا، فى الولايات المتحدة، وإذا كان ـ بالإضافة إلى ذلك ـ لم يحفظ أمر هذه الرحلة سرا، فكم هى المسافة التى تظن أن السائق والنقود يجتازانها؟.. أما فى الجزيرة العربية، فيقطعان المسافة كلها، فى أمن تام، ومن دون أية معارضة من أى شخص. وينبغى أن نتذكر أيضًا أن الجزيرة العربية التى أتحدث عنها، مساحتها ثمانمائة ألف ميل مربع، وأنك فى مسافة مئات الأميال قد لا تجد قرية، وإنما تجد بدوًا رحّلاً يندر أن يتمكن أحدهم من القراءة والكتابة.. هذا يوجز ما صنعه **الملك عبدالعزيز بن سعود** للجزيرة العربية. وهو معروف على الأكثر بابن سعود، ويُعدّ من أبرز رجالات عصرنا».

وأتى الكاتب على خلاصة من تاريخ الدولة السعودية الأولي، إلى تغلب آل رشيد، ووصف نشأة عبدالعزيز فقال ما ترجمته بتصرف: «كان عبدالعزيز، اليافع فى ذلك الوقت. شابا قويا، طوله ستة أقدام وأربع بوصات. تعلم من أساليب العالم الخارجي، فعف شيئا عن الإنجليز وشيئًا عن القيصر الألماني، وأشياء عن غيرهما، وحفظ كل ذلك فى عقله الواسع».

وتكلم عن «الإخوان» فقدر عدد سكان الهجر، بمائة ألف نسمة. وقال: إنهم كانوا «العمود الفقري» لسلطان ابن سعود فى البلاد.

وكان **بروكلمان** المستشرق الألماني، غزير العلم بتأريخ العرب وأدبهم، حجة فى

بعض ذلك. من كتبه «**تاريخ الشعوب الإسلامية**»[1] أوجز في فصوله الأخيرة ما كان من الأحداث في شبه جزيرة العرب، وختم بحثه بفصل عنوانه «**سياسة ابن سعود الداخلية**» جاء فيه: «كان ملك نجد والحجاز، ولايزال، معنيا بالعمل على تثبيت سلطانه أكثر من عنايته بالعمل على توسيعه. وعلى الرغم من أنه اضطر في بعض الأحيان إلى أن يقمع، بقوة السلاح، ثورات بعض القبائل البدوية؛ فقد كان يؤثر أن يدعم سلطانه بالإكثار من مصاهرة القبائل وشيوخها ـ يساعده على ذلك نظام تعدد الزوجات في الإسلام. وكان ديدنه تعريف بلاده بثمرات الحضارة الحديثة. وقد أشرنا فيما سبق إلى إنزاله «الإخوان» في مستعمرات زراعية[2] اتجه اهتمامه بعدها إلى تيسير المواصلات «وما كان لهذا من أثر كبير أعان على تقصير المسافات البعيدة. وكما عمل الفرنسيون والإنجليز، في سورية والعراق، على إحلال السيارات، محل قوافل الجمال، هذه القوافل التي عادت على العرب بربح طائل خلال الحرب العالمية الأولي، فإن ابن سعود أدخل السيارة أيضًا إلى شبه الجزيرة، حتى لقد انتهت مواصلات الحج إلى أن تكون كلها «آلية»، وطفق يسعى مؤخرًا، بعد أن لمس حسنات الطب الأوربي، إلى أن يجعل منافع علمي الصحة والطب الحديثين، في متناول جميع رعاياه. كذلك التعليم ـ الذي كان مهملاً حتى ذلك الحين في شبه الجزيرة، باستثناء مكة والمدينة، إهمالاً تاما، فإنه لقي اهتمامًا وعناية من جانب العاهل السعودي».

ومن كتب هـ. س. ج. ب فلبي كتاب «جزيرة العرب الوهابية»[3] طبع في لندن سنة ١٩٢٨ بالإنجليزية.

صنفه فلبي أيام كان لايزال موظفًا «رسميا» لدى حكومته البريطانية، في العراق. وجعله ٢٧ فصلا، وبدأ فصوله الأولى بقصة وصوله إلى الرياض في أواخر رمضان ١٣٣٥هـ (١٩١٧م) واجتماعه بالملك عبدالعزيز. ثم رحلته إلى الشمال، مارا بوادي

---

(١) نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس والأستاذ منير البعلبكي، وطبع في بيروت، سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠.

(٢) يعني الهجر.

(٣) Arabia of Wahhabis.

حنيفة، إلى الوشم، فعنيزة وبريدة (في القصيم) وسفره إلى الكويت. متحدثًا في خلال ذلك عن حروب عبدالعزيز مع الترك وآل رشيد، واهتمامه من أول عهده لإسكان البدو الرحّل.

وتكلم في الفصلين العاشر والحادي عشر، عن الخلاف بين عبدالعزيز والشريف حسين بن علي، ووقعة تربة.

وقال في الفصل الثاني عشر، تحت عنوان «سيد قلب الجزيرة أخيراً»: إن عبدالعزيز، على الرغم من تأييد الحكومة البريطانية لأعدائه، لم يألُ جهداً في إحكام أواصر الصداقة بينه وبينها وقد أرسل ابنه فيصلاً إلى بريطانيا سنة ١٩١٩ في زيارة ودية.

وشرح في الفصول ١٣ و١٤ و١٥ ما كان بين عبدالعزيز وجيرانه من الخلاف على الحدود، بعد أن ضم عسيراً وحائلاً إلى ممتلكاته، وبعد أن أصبح مطوقًا بالأشراف من الحجاز وشرقي الأردن والعراق.

وأتى في الفصل ١٦ على مبايعة أهل الحجاز لعبدالعزيز (السلطان) بالملك وأنه عاهدهم على اتباع الكتاب والسنة في أحكامه. قال فلبي: وأصبح الملك عبدالعزيز، من ناحية أخري. في خضم السياسة الدولية، وأرسلت إليه الحكومة البريطانية السير جلبرت كلايتن. فعقد معه معاهدة «حَدَة» ـ بين مكة وجدة ـ سنة ١٩٢٥ وفيها الاعتراف للملك عبدالعزيز بضم قبائل شمر إليه، وإعادة «قريات الملح» إلى نجد، وكانت قد ألحقت بشرقي الأردن.

وتحدث في الفصول ١٧ ـ ٢٠ عن تنظيم الإدارة في مكة وجدة وسواهما والاتصال بالخارج، واعتراف الدول الكبرى به. وأفاض في حوادث الحدود بين نجد والعراق، وقال ما مؤداه بايجاز: أقام العراق «مخافر» في داخل حدوده لاتقاء الغزو، وعد الملك عبدالعزيز ذلك مخالفا لبروتوكول العقير الموقع سنة ١٩٢٢ وثار الرأي العام في نجد، وقامت الغزوات على حدود العراق والكويت: وفتكت الطائرات (البريطانية) ببعض المغيرين على الحدود، وأراد الملك معالجة القضية بالمفاوضات السلمية، فعصاه غلاة

«الإخوان، وتابعوا غزواتهم. وقام فى البلاد ما يشبه الحرب الأهلية، إلى أن تمكن عبدالعزيز من قمع الثورة، بعد معارك استتب له الأمر فى نهايتها».

وقال تحت عنوان «العلم فى الصحراء» إن الملك عبدالعزيز أدرك قيمة المخترعات العلمية الحديثة فى الغرب، فعمد إلى اقتناء المفيد منها، واشترى أربع طائرات، سنة ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) ولم يستطع التوسع، لضيق موارده المالية، أيام كان اعتماده على دخل الحج المحدود وغير الثابت، قبل اكتشاف النفط فى نجد، وبعض المعادن فى الحجاز.

وتحدث فى الفصلين ٢٤ و٢٥ عن بساطة الملك فى عاداته الشخصية ولباسه وطعامه، وكراهيته المظاهر الكاذبة والأبهة الفارغة، وأنه إذا أراد بدوى أن يخاطبه، فما عليه إلا أن يقول: ياعبدالعزيز. وقال عن كرمه: ليست له حدود وقال: ليس العُبوس فى نظر عبدالعزيز، دليلاً على الوقار، كما يحسبه بعض متقشفى أوربا، أو بعض سكان الرياض نفسها، وبداهته سريعة ولطيفة. ومن صفاته الجذابة جدا، حبه لأقاربه الأحياء منهم والأموات، وقال: هو جندى ناجح، ومصلح أصيل، تقى كل التقي، إنساني، صريح، حازم، ذكي، متواضع، ولا أعلم أن فى العالم حاكماً تتحدث معه رعيته بمثل الحرية التى تتحدث بها رعية عبدالعزيز معه. وذلك إلى جانب ماتكن له من إكبار وإخلاص عظيمين. وقال: إن جميع الأوربيين الذين قابلوا الملك عبدالعزيز، مقتنعون بمقدرته العجيبة على تكييف الرأى العام فى الجزيرة العربية.

ثم ذكر أن الحركة القومية العربية، مدينة كثيراً فى نشأتها، للحركة الأولى أيام **محمد ابن عبدالوهاب**، كما أنها فى هذه الأيام تستمد حيوية إضافية من حركة **الملك عبدالعزيز**.

وعالج فى الفصل الأخير من كتابه ماسماه «مصير المملكة بعد انقضاء أجل الملك» فقال: إن الملك حريص على إقامة دعائم الدولة على أسس ثابتة لاتتزعزع بعد انطفاء شعلته.

وأشار إلى ضعف موارد البلاد فى ذلك العهد (قبل ظهور النفط) وقال: إذا كان هناك رجل يستطيع أن يجلب لبلاده الجافة القاحلة مصدراً من مصادر الثروة. بعد أن مهّد بالأمن الدائم، فهو الملك عبدالعزيز.

أما كتاب «العرب والزيت والتاريخ»، للكاتب الأمريكى «كيرمت روزفلت» حفيد ثيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأسبق، فهو من الكتب الممتعة عن الشرق الأوسط خص فيه مؤلفه بلاد العرب: المملكة العربية السعودية، ومصر، والعراق، وشرقى الأردن، ولبنان، وسورية وفلسطين: بأوفى فصوله واستطرد إلى ذكر ايران وتركيا وأفغانستان. وقال كلمته فى ملوكها ورؤسائها وأمرائها جميعًا.

وكان حديثه عن تاريخ آل سعود، والملك عبدالعزيز حتى استيلائه على الرياض، ضافيًا. قال فيه:

«يُعرف الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود بين أتباعه بعبد العزيز.. بينما يسميه الأمريكيون ابن سعود.

«أقام عاصمته فى صميم الصحراء. وكان من حسن حظى وحظ زوجتى أننا لبثنا فى ضيافته ثلاثة أيام، فى صيف ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) بعد أن طرنا أميالاً كثيرة فوق ذلك الفراغ الموحش من الأرض وهبطنا، فى خارج هذا العالم.. لكى نجد قصوراً عامرة بنور الكهرباء والتليفونات والتهوية الاصطناعية وإلى جانبها «ملك» يستعصى تصوره على الخيال، أكثر من عاصمته.

«ابن سعود، رجل ضخم، خصوصًا بالنسبة إلى حجم العربي، ولا يزال طوله ستة أقدام وثلاثًا أو أربع بوصات. مع أنه يعتقد أن جسمه انكمش مع السنين.

«لقد كان من عظماء المحاربين. وفى جسمه حتى الآن آثار من جراح المعارك.

«ولاشك فى أن سنه قاربت السبعين. وهو مازال يقف مزهوا منتصب القامة.

«عملاق. ملتح. كسوته الثياب العربية الفضفاضة. على رأسه صمادة منقوشة باللون الأحمر. وعقال مذهب. يطل على العالم، كمارد كبير فى قصص ألف ليلة وليلة.

«ليس سيّد الصحراء بأعظم تحفة فنية من حيث الصورة فقط، بل هو أحد دهاة الملوك الألمعيين أيضًا، فى عالم القنابل الذرية والفيتو.

«ينتقل تفكيره بسرعة. وبشكل حاسم، كالغزوات التى كان يقوم بها.

«استولى على مدينة الرياض المسورة، حين كان فى ريعان شبابه، بقوة لاتزيد على أربعة وثلاثين رجلاً، بينما كانت حاميتها تعد بالمئات.

«وهو فى بعض نواحيه «جيم فارلي»[1] العرب. ينادى كل شيخ من شيوخ الصحراء باسمه. ويعرف تاريخ عشيرته ونقاط القوة والضعف فيه وكيف يستحوذ على ولائه.

«أضف إلى هذا أن الملك عبدالعزيز يعلم بأن الإحاطة بما يجرى فى صحراء الجزيرة، لا يمكن أن يكتفى بها ملك فى القرن العشرين يملك بلاداً غنية بالزيت، وأن عليه أن يعرف ما استطاع، أهداف الدول الكبري. ولهذا فإن تراجمته يصغون إلى إذاعات الراديو فى كل انحاء العالم، ويتلون بين يديه ـ ثلاث مرات فى اليوم ـ موجز الأخبار التى تذيعها العواصم العالمية.

«وهو يمتلك لب كل زائر يفد عليه من الخارج، ويمنحه صبراً لاينفد وحبا للاستطلاع لاحد له. وله براعة نادرة فى أن يجعلك تشعر أنك فرد من أسرته القريبة، على الرغم من توسط الترجمان بينك وبينه فيما تتبادلانه من حديث».

«ينحدر ابن سعود من سلالة عظيمة، كان منها أحد جدوده «سعود» حاكمًا شهيراً أيضًا، فى تاريخ العرب، وصفه العالم المستشرق الألمانى «بروكلمان» بما ينطبق على سليله الحالي، فقال: إنه مثال الكمال للحاكم العربي، يعامل شيوخ البادية على أسس المساواة التامة، ويستطيع بما وهب من صفات أن يفرض نفسه عليهم».

وأبرز صفاته الفصاحة. وللفصاحة شأنها الكبير عند العرب حتى اليوم وقد وطَّدت إدارته الأمن الذى لم تعرفه الجزيرة العربية من قرون وأزال ما كان يسمى حق القبيلة فى حماية المجرم والحيلولة دون إنزال العقاب به. وطبق «القانون الجزائى» حسب تعاليم القرآن، تطبيقًا كاملاً. وعلى الرغم من أن فى تلك العقوبات ما قد يعتبر قاسيًا بالنسبة إلى مقاييسنا، فقد جاءت بنتيجة باهرة هى انعدام الجرائم الخطيرة فى شبه الجزيرة انعدامًا يكاد يكون تاما.

---

(١) فى كتاب «روزفلت وهوبكنز» لشيروود ـ كان جيم فارلى Jim Farley أعظم معارضى روزفلت وأخطرهم فى الولايات المتحدة وكان روزفلت يخشى مزاحمته له على الرئاسة سنة ١٩٤٠ وينقى خطر آرائه فى السياسة الخارجية.

«وللملك عبدالعزيز أن ينظر اليوم قليلا إلى الوراء، ليرى حياة حافلة بالإنتاج قل من وهب مثلها فى الرجال. وقد انفرد بمكانة فى العالم العربى لانظير لها فى الحاضر وفى تاريخ العرب المقبل، إذ لاشك فى أنه قد وقف فى عداد العظماء الكبار، من ملوك العرب وحكامهم الفاتحين» ا.هـ.

ولقد تمثل الملك عبدالعزيز عبقرية الصحراء فيما تشتمل عليه من «كرم وحرص وصبر وثورة وشجاعة» ذلك أن العرب كما يقول تيسيغر[1] «بطبيعتهم متقشفون، يستمدون الرضا من بساطة حياتهم المجردة، وينفردون من النعم التى يعدها الآخرون ضرورية، والبدو يقيمون وزنا للكرامة الإنسانية، وأكثرهم يفضل أن يشهد رجلا يموت على أن يهان، ومع أنهم متحفظون أمام الغرباء، ومعتادون فى المناسبات الرسمية على الجلوس دون حراك صامتين، فهم شعب خفيف الروح».

ومن خلال تحليل مضمون أقوال **الملك عبدالعزيز** نجد تمثله لعبقرية الصحراء أوضح ما يكون التمثل. فإذا كانت عبقرية الصحراء تقوم على الصبر والبساطة، فإن الملك عبدالعزيز يقول فى بعض أحاديثه: «**والله ثم والله إنى لأفضل أن أكون على رأس جبل** آكل من عشب الأرض ـ وأعبد الله وحده، ومن أن أكون ملكا على سائر الدنيا».

وهناك علاقة وثيقة بين البساطة والعقيدة الإسلامية فى عبقرية الصحراء التى تمثلت دين الفطرة: ولقد تمثل الملك عبدالعزيز هذه الحقيقة فى رؤياه الفكرية حينما قال: «إن المسلمين لايرقون ولا ينهضون بالهرجة والزخارف، إن سبيل رقى المسلمين هو التوحيد الخالص والخروج من أسر البدع والضلالات والاعتصام بما جاء فى كتاب الله، وسنة رسوله الكريم».

وعلى ذلك يمكن القول إن الملك عبدالعزيز قد ورث من عبقرية الصحراء العربية: الشجاعة وقوة النفس، فهو لا يخشى الأهوال أو يخاف الموت، كما أعاد عصر أجداده العرب الذي سمى عصر البطولة. ولذلك كان من أبرز صفاته شدة الشعور بالعزة والكرامة والحرص على الشرف وعلى كل ما يجلب رفع الذكر والثناء. الأمر الذى دفع

(١) رمال العرب ص١٧٥.

به إلى أن يتمثل عبقرية الشخصية العربية فى حب الحرية والوفاء بالعهد وإباء الضيم ورفض الذل أو الاستكانة للغير. كما اشتهر بشهرة أجداده بين جميع الأمم بالجود والكرم، وهذا يحمل معنى الإيثار والتضحية والمبادرة إلى النجدة.

وإذا كانت هذه أهم الصفات التى تمثلها الملك عبدالعزيز من عبقرية الصحراء بوجه عام، فإننا سنجد من جهة أخرى أن هذه الصفات اتخذت أبعادها الحقيقية من خلال الشخصية الإسلامية التى تمثلها فى قوله وفعله، فوجدنا أن الشجاعة والبطولة لديه يوجهها الملك عبدالعزيز من أجل تأييد الحق والجهاد فى سبيل الله. بل إننا نجد أن الحروب فى رؤياه الفكرية لا تكون إلا من أجل مقاومة الكفر والطغيان، وذلك فى تقديرنا تنتظمه الشخصية الإسلامية التى يمثلها أصدق تمثيل، فهو يقرن عزة النفس وشرفها بالإيمان والفضيلة وأداء الواجب، وطاعة القانون العادل، وهو يجعل الكرم عاما للإنفاق فى وجوه الخير ومصالح المجتمع، كما يجعل التكافل لتوفر حاجات المواطنين.

وتأسيسا على هذا الفهم، نجد أن صورة الشخصية الإسلامية كما يمثلها الملك عبدالعزيز، تنتظم فى أعطافها صورة الشخصية العربية وصورة العقيدة الإسلامية، ولذلك تجلت شخصيته فى أروع صور البطولة والفداء والشعور بالكرامة والتحلى بالفضائل، والعمل لرفع شأن الدين والمجتمع والدولة، ولخير الإنسانية عامة، وتحريرها من قيود الذل والاستعباد والاستغلال.. كما نشهد ذلك فى سيرة الملك عبدالعزيز على نحو ما سيجيء تفصيله، وعلى النحو الذى يذكرنا بأبطال الإسلام فى الفتوحات العظيمة التى حققوها فى التاريخ.

ولقد تمثل الملك عبدالعزيز من عبقرية الصحراء كذلك، حاسة فنية تميزت بها الشخصية العربية على مر العصور، فكان الشعر يجرى على ألسنتهم، وكان الشعر، هو مصدر معرفتهم وطريق اكتشافهم للعالم، إن العلم عندهم شعور وحدس. وسمى الشاعر شاعرا «لأنه يشعر مالا يشعر غيره أى يعلم».. وفى الحديث قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة، فإذا ألبس عليكم شيء من القرآن فالتمسوه فى الشعر فإنه عربى»[1]. ونظرتهم إلى الشاعر هى نظرتهم إلى الشخص الذى يكشف ذوق الأمة ومعارفها فى آن واحد، أو أنه يكشف معارفها حين يكشف ذوقها، ومن هنا كانت تلك

(١) لسان العرب (شعر).

المعرفة متجددة، تقرأ المعلقات فتحس باللوحات تتوالى على سمعك، إذ لا يعرف الصحراء من يظن أنها رتيبة ومتكررة، فاللوحات المختلفة تتجاور فيها، ويكشف القرآن الكريم عن ذلك فيقول سبحانه وتعالي: ﴿وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾(١). ويشرح الرازي(٢)، هذا التجاور فيقول: «وتقريره من وجهين: الأول أنه حصل فى الأرض قطع مختلفة بالطبيعة والماهية وهى مع ذلك متجاورة، فبعضها تون سبخة، وبعضها تكون رخوة، وبعضها تكون صلبة، وبعضها تكون منبتة، وبعضها تكون حجرية أو رملية، وبعضها يكون طينا لزجا، ثم إنها متجاورة.. والثانى أن القطعة الواحدة من الأرض تسقى بماء واحد، فيكون تأثير الشمس فيها متساويا ثم إن تلك الثمار تكون مختلفة فى الطعم واللون والطبيعة والخاصية، حتى أنك قد تأخذ عنقودا من العنب، فتكون جميع حباته حلوة نضجة، إلا حبة واحدة فإنها بقيت حامضة يابسة.. بل نقول هاهنا ما أعجب منه، وهو أنه يوجد فى بعض أنواع الورد ما يكون أحد وجهيه فى غاية الحمرة والوجه الثانى فى غاية السواد».

إن الصحراء تبدو للمستعجل المنبت متساوية، وإن أماكنها لا تتغير. ولكن عند التريث تتبدى هنالك فروق دقيقة(٣) وقد لاحظ ذلك كثير من الجغرافيين، والمستكشفين، نقرأ وصف ابن بطوطة(٤) للطريق التى سلكها من المدينة إلى مكة يريد الحجة الأولي، فنرى المناظر تتغير وتتجدد، إنها بدر حيث حدائق النخل متصلة، وحيث عين فوارة يجرى ماؤها، وها هو جبل الرحمة الذى نزلت به الملائكة، وبإزائه جبل الطبول، حيث يسمع أهل البلدة مثل أصوات الطبول كل ليلة جمعة، وبين بدر والصفراء نحو بريد، فى واد بين جبال مطروقة العيون، وها هى الصحراء المعروفة بقاع البزواء وهى «بريه يضل بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل»، وفى منتهاها «وادى رابغ» «يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا»، وهكذا يصف الأماكن، وهو ينتقل من مكان إلى مكان، من

(١) سورة الرعد الآية (٤).

(٢) تفسير الرازى ٥/ ١٨٦ ـ د. عبدالحميد إبراهيم: الوسطية، ص٥.

(٣) د. عبدالحميد إبراهيم: المرجع السابق، ص٥٥.

(٤) المرجع نفسه، ص٥٥ ـ مهذب رحلة ابن بطوطة ١/ ١٠١.

صحراء إلى واد، ومن رمل إلى نخل، حتى يصل إلى مكة بعد مشقة «وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها، ويشاهد التلف فى طريقها، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشراً، كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولانصبا، إنه لأمر إلهى وصنع رباني».

وقد أحس ذلك من المعاصرين كل من رحل إلى الصحراء، ـ كما تقدم ـ فتحدثوا عن إغرائها نقرأ رحلة «تيسيغر» عبر الربع الخالي، فنجده يصف المناظر الصحراوية المتجددة والتى استولت على لبه، هنا النباتات المعروفة «بأشواك الرمال» تلقى شبكة خفيفة من الظلال على الصخور الصلبة، وهنا أشجار الأحراش مضفرة بالياسمين والنباتات المتسلقة، وهنا علىقة صغيرة خضراء لامعة، وهنا النبات المسمى «رمرام» وهو ينمو على الرمال الصلبة فى المنخفضات، وهنا نبات «الحلفاء» ذو الشراريب، وهنا نبات «العبل» ذو الأغصان الرفيعة المنكسرة..إلخ.

وهكذا يشاهد العربى المناظر التى تتجدد كل حين، وتتنوع داخل البساطة. إنه على حد تعبير الدكتور عبدالحميد إبراهيم، تغيير داخل الصحراء لا تلحظه إلا العين النفاذة، كالقصيدة العربية تبدو للغريب رتيبة وذات تفاعيل متكررة، ولكن الأذن المدققة والمخالطة تكتشف فيها جمالا. إن التجدد الذى يعيشه العربى فى صحرائه لا يصل إلى حد التعقيد والاختلاط وتداخل الأشياء، إن القرآن الكريم يتحدث عن ألوان الجبال فيقول: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[1] وإن الرازى يكشف حقيقة التغيير الذى يتناول اللون الواحد فيقول: «الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون، أى بيض مختلف ألوانها، وحمر مختلف ألوانها، لأن البيض قد يكون على لون الجص، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص، وكذلك الأحمر»[2].

ولقد تمثل الملك عبدالعزيز رحمه الله من عبقرية المكان هذه العبقرية الفنية التى اشتهربها العرب بين الأمم، ونعنى بها تفوقهم وامتيازهم فى فن الشعر، الذى كان فى جميع أطوار الأمة العربية باعثا قويا من بواعث النهضة والتطور، ولا غرو فقد بدأ تاريخ

(١) سورة فاطر الآية: ٢٧.

(٢) تفسير الرازى ٧/ ٤١.

الأمة العربية بالقرآن الكريم الذى شحذ همم العرب وبصرهم بالقيم الإنسانية وبالحياة، ونظم صلاتهم فيما بينهم، وفيما بينهم وبين بارئهم، وفتح أمامهم آفاق العيش الكريم، وأكسبهم القوة ودعاهم إلى الوحدة والعزة، وحملهم رسالة السماء إلى الناس من حولهم، فاندفعوا فى جحافلهم تحت راية القرآن تسلم لهم البلاد المكدودة من ظلم الطغاة قيادها ليرسوا بها حكم العدل، وليشيعوا لغة العرب وحضارة الإسلام[1].

ولقد ورث الملك عبدالعزيز رحمه الله من أمته العربية البيان الفصيح، الذى حباهم الله تعالى به وجعل معجزته فيهم على لسان النبى العربى معجزة بيانية هي: «القرآن الكريم، وهى معجزة دالة على مكانة العرب فى البيان، ولذلك افتخر العرب بالبيان واهتموا به أشد الاهتمام، وأى اهتمام أكثر من أن الشاعر العربى كان الزعيم والحكيم وصاحب الأمر والمشورة، وأن الشعر والخطابة كانا ميزتين يمتاز بهما الرجل بينهم، ويحتفل بها القوم أشد الاحتفال فيعرسون إذا نبغ فيهم شاعر أو خطيب ويهنىء بعضهم بعضا، وتغبطهم القبائل وتحسدهم، لأن الخطيب أو الشاعر بينهم كان بمثابة اللسان الناطق بالفضل، الذاب عن التهم التى يوصمون بها»[2].

وقد أدى البيان للعرب خدمات جلي، منها أنه وحد بينهم قبل الإسلام وقرب بين نفوسهم، وعطف أفئدتهم، يقول الدكتور طه حسين: «إنما الذى استطاع أن يؤلف شيئا ما بين هذه القبائل المتفرقة هو الشعر الذى لم يكد ينشأ حتى فرض لهجة بعينها على الأمة العربية كلها فى جميع أطرافها وأقطارها من الجزيرة العربية. فكان الشاعر العربى إذا أنشأ قصيدة وأنشدها فى ناد من الأندية فهمها عنه الناس مهما تكن قبائلهم. ومهما تكن لغاتهم الخاصة، ثم لم يكتفوا بفهمها وإنما كان الرواة يتناقلونها عن الشاعر، وكانت القصيدة لا تكاد تنشد حتى تشيع فى الجزيرة العربية.. فأول توحيد للعقل العربى إنما جاء من هذه الناحية، فالمكون الأول لإيجاد وحدة بين هذه القبائل العربية إنما هو الأدب والشعر بنوع خاص».

---

(١) د. محمد زغلول سلام: القومية العربية فى الأدب الحديث، ص١.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٥.

ولقد كان الملك عبدالعزيز يتذوق الشعر ويطرب للمعنى الدقيق، ويتردد على لسانه بعض الأبيات في المناسبات. وهو في الشعر الملحون (النبطي) أعرف وأعمق. وقد أورد علامة الجزيرة الأستاذ حمد الجاسر في معرض الكلام على عين من الماء، يقال لها «الهيت» قريبة من الرياض، أبياتًا من الملحون قال: إنها مما ينسب إلى الملك عبدالعزيز[1].

ونقل مؤلف «عبدالعزيز في التاريخ»[2] أبياتًا، فيها فكاهة، قال إنها لعبد العزيز.

ويقول الزركلي إن إبراهيم بن سليمان، آل عقيل، حدثه أن الملك عبدالعزيز، كان قد همّ بمهاجمة الأحساء في أوائل سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) وزحف إليها، وامتنعت عليه، فوقف أمامها ممتطيًا صهوة جواده، وهزّ رمحه بعنف، فانكسر الرمح من جانبيه؛ وأنشد:

يا هَجَر، يا زين النبات ... لا تحسبينا هاربين

إن طول الله بالحياة ... حنّا إليك راجعينْ

ويقول الزركلي:

«سمعت أبياتًا من الملحون، قيل: إن عبدالعزيز أجاب بها أحد أبناء عمومته، من حفدة سعود بن فيصل، والبيت الثاني منها:

خبر سعود وقل له مير[3] وش جابه ... بيوم دنياه ما تعرف عواقبها

«وكان مما أخبرني به رشْد مَلْحَس (نائب رئيس الشعبة السياسية) في الرياض، وقد طالت ملازمته للملك عبدالعزيز؛ أنه يفكر في تدوين ما ينسبه إليه رفاق صباه، من أبيات يتناقلونها عنه، من الشعر «النبطي».

ولا أعلم إن كان قد بقي بعد وفاة رشدي، شيء من هذا، في أوراقه المخزونة بجدة؟

ورجعت في ذلك كله، إلى الأمير عبدالله بن عبدالرحمن، أخي الملك عبدالعزيز، أستفتيه، فقال: لم يكن، رحمه الله، يقول الشعر. ولكن ربما كان يجري على لسانه الشطر

---

(١) «مدينة الرياض» ٢١ وفيه الأبيات مع شرحها.

(٢) حمد بن إبراهيم الحقيل، ص٨٣.

(٣) لكن.

أو البيت، من الملحون، فيردّده، ولا يتعمد الزيادة..».

ويضيف الزركلي:

«أخبرني يوسف ياسين، قال: كنت مع الملك في رحلة بالبر (قبل أيام السيارات) وأظلم الليل، فجال في خاطري أن أتمثل بقول الشاعر:

لمعت نارهم وقد عَسْعَس الليل وضلّ الهادي وحار الدليلُ!

فقال الملك: كفانا الله الشرّ.. العرب تتشاءَم من هذا البيت يايوسف!

وكان كثيراً ما يردّد في المناسبات، قول الأفوه الأودي (صُلاءَة بن عمرو):

تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت وإن تولّت فبالأشرار تنقاد

لايصلح الناس فوضي، لا سراة لهم ولا سراة إذا جهّالهم سادوا!

وقول عليّ بن المقرّب الأحسائي:

تجاف عن العتبى فما الذنب واحد وهب لصروف الدهر ما أنت واجد

إذا خانك الأدنى الذي أنت حزبه فوا عجبا إن سالمتك الأباعد!

وسمع يتمثّل بقول الفرزدق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكّهم إذا أثقل الأعناقَ حمل المغارِم!

وكان يطرب لسماع الغناء بشعر البادية. حكى ابن بُليهد في كتابه صحيح الأخبار، وهو من أهل بلدة «شقراء» أنه كان في صحبة الملك عبدالعزيز، في سنة الحَريق، ونزلوا على بئر «الخُريزة» في وادي برُك (بجبل اليمامة الجنوبي) قال: فعرض علينا الملك، وقال: غنوا يا أهل شقرا! فتجاذبنا الأصوات بأبيات منها:

حِنّا رجعنا من الأفلاج كل اللوازم قضيناها

والهجن فوق الخُريزة داج ضامي وعطن على ماها

وذكر الربحاني أنه رأى على باب القصر الملكي بيتًا معروفًا من الشعر، وهو:

لسنا وإن أحسابنا كرمت يومًا على الأحساب نتكل

فقال للملك: هذا مبدأ شريف يامولاي، ولكن البيت الثاني:

نبني كما كانت أوائلنا تبني، ونفعل مثل ما فعلوا

فقال الملك: نحن نبنى يا أستاذ ما كانت أوائلنا تبني، ونفعل (إن شاء الله) فوق ما فعلوا.. وقد قدم الأديب السعودى حمد بن إبراهيم الحقيل فى هذا الصدد صفحات مشرقة، تكشف لنا عن هذا التمثل لعبقرية المكان، فى شخصية الملك عبدالعزيز.. يقول[1].

«كان رحمه الله مع ما أوتى من شجاعة وبطولات يكره سفك الدماء ولا يقتل الأسرى بل يفكهم، ولكن كثيرا ما يتمثل بالحلم والشعر فى ذلك. وقد سمعته، وكان يلقى درسا على المجاهدين الذين ساهموا فى قضية فلسطين، وقد أمر على أن أكون مرشدا وإماما لهم، وذلك عام ١٣٦٧ هـ والمجاهدون من إخواننا البوادى يزيد عددهم ذلك اليوم على ثلاثين ألفا وفى معرض توجيهه وإرشاده يتمثل:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

وكان يعمل على حد قول الشاعر:

ليس الشجاع الذى يحمى فريسته عند القتال ونار الحرب تشتعل

لكن من كف طرفًا أو ثنى قدمًا عن الحرام فذاك الفارس البطل

سجايا كثيرة فطر عليها الملك عبدالعزيز:، الشجاعة النادرة والحلم البعيد المدي، والقلب المملوء بالعلم، وقوة اللسان، فإذا خطب ملك القلوب وقاد النفوس العصية، يفرح بما يفرح به شعبه، ويتألم مما يتألم منه كان يجلس أحد أطفال أولاده وأحفاده فى حجرة يداعبه ويلاطفه، ولا غطرسة ولا تكبر، وهو مع تلك المداعبة والملاطفة، لا ينشغل عن حديثه، ولا يقطع مجرى خطبته، وقد وفقه الله إلى بر والديه والحض على ذلك حضا يتجلى معه معنى الآية: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾

(١) حمد بن إبراهيم الحقيل: عبدالعزيز فى التاريخ ص٧٧.

وحدث من رآه بمكة وقد أراد والده الإمام عبدالرحمن أن يركب، فوطأ له من كتفه حتى وضع قدمه عليه فصعد على مركبه، وأنه كان يتولى صب القهوة فى مجلس والده. وبذلك ضرب للناس المثل وحسن القدوة فى التواضع وبر الوالدين. وبهذه المزايا الكريمة والسجايا الحسنة بسط الله له هذا الملك ووصل له من أكناف هذه الدولة. وإنك لا تجد فى ملوك وقته من هو أعلم منه بأصول الدين والأحكام، وكان أوسع وأبعد نظرا من بعض علماء وقته، وله ذوق فى الشعر والأدب، وله وقت يقضى فيه بعض المطالعة، ووقت عام يقرأ عليه بعض القراء فى عدة كتب من تفسير وتاريخ وأدب وغير ذلك مما يفسح العقول والأفكار ويفيد الحضور.

كان بعض الشعراء الشعبيين له حاجة عند الملك عبدالعزيز وهى عبارة عن إثبات اسمه فى الديوان وإجراء عادة سنوية له، وكانت مراجعاته فى أوقات غير مناسبة فيقول له الملك عبدالعزيز: هين هين، أى اصبر، أو بعدين بمعنى إلى فرصة أخري، فلما سئم من المراجعة حضر يوما بباب الملك عبدالعزيز ورفع صوته بهذا البيت الذى جعله وسيلة لنجاح مهمته والبيت:

يامن يعلمن بتاريخ هين إلى قبل هين كم أخليه من يوم

فكانت بمسمع من الملك عبدالعزيز، وعندها أمر بإحضار كاتب وكتب للجهة المختصة باثبات اسمه فى الديوان وإجراء عادة سنوية. وكان هناك شاعر آخر فقير مدقع، سافر إلى الرياض ليثبت اسمه مع أهل العوايد والوفدين على قصر الملك فلم يوفق هذا الشاعر لدى ابن جميعه المسئول عن ذلك، بل طرده. فما كان منه إلا أن وقف للملك فى طريقه وهو ذاهب إلى المربع فأنشد قائلا:

يابو تركى لاتنساني بن جميعه تناساني
لى عشرين ولى بنيه ووليدى سبعة بيضان
اجعلها منك إلا هيه عند الله ورحم بزران
أن بغيتولى ماريه ابحث فى الدفتر تلقان

فما كان من الملك إلا أن عطف عليه وقال له: لو قلت لى تسعين لكان أولي. وأمر أن

تثبت له تسعين ولولده عشرين وعباءة، هكذا التواضع والحلم والكرم. وقوله . سبعة بيضان، أى سبعة دراهم فضية والبتيه عباءة معروفة عند القوم..

«وكان هذا الشاعر قد ركبته ديون أدى بعضها إلى رهن بيته الذى لا يملك سواه فلما حل الأجل ضايقه غريمه وعزم عليه أن يبيع الرهن فاتصل بى مستشيرا، وكانت فى ذلك الوقت حالى حويله، فما ان من الشاعر إلا أن سافر إلى الرياض ووفد على الملك عبدالعزيز وألقى هذه الأبيات فى بعض مجالسه الخاصة فى قصر البديعة بالرياض.

فما كان من الملك عبدالعزيز الرفيق الرحيم إلا أن عطف على هذا الشاعر البائس الفقير وأمر بقضاء ديونه كلها وبذلك فك رهن مسكنه وبرئت ذمته من حقوق الناس وسكن داره إلى أن توفى رحمه الله.

ومما ينسب لعبدالعزيز من الشعر الشعبى هذا الأبيات(١):

روحن مثل القطا صوب الشميله ضمر تضفى عليهن العباة

واهنى الترف منسوع الجديله ما ضواه الليل عند مغرزات

وردوهن هيت واخطاء الدليلة والموارد غير هيت مقضبات

آه من قلب على حام المليله لا تذكرت العصور الماضيات

عصر من ينطح مقاديم الدبيله لابتى لاجا نهار الموجبات

دون دين الله نتعب كل أصيله نبذل المجهود دون مخاشبات

من تعبت بالفرايض عزتى له تقعده حدب السيوف المرهفات

«هيت منهل معروف فى نجد، وهيت مدينة فى العراق» وهنا ضيعة يقال لها الهيت من أعمال حوران من ناحية اللوي».

وروى بعضهم للشيخ حمد قال: ان عبدالعزيز فى عنفوان شبابه قد عمد خادمه شلهوب أن يبحث عن زوجة له صالحة وذلك فى بعض أسفاره، لأنه كان عفيفا منذ نعومة أظفاره، وقد بحث شلهوب ولم يوفق للغرض المطلوب، فقال عبدالعزيز على سبيل المداعبة:

(١) المرجع نفسه، ص٨٣.

حسبي الله على شلهوب يوم سير على ربعه
خطبته ما تسد النوب ظبيه اللى ذكر ضبعه

ومن أخري:

حسبي الله على شلهوب والقصيبسي وبن جبر

وكان رحمه الله متخلقا بالأخلاق الفاضلة منذ الصغر، وشهد له عدوه وصديقه بالعفة والنزاهة والترفع عن الرذيلة، وتنطبق عليه الأبيات الآتية:

لعمرك ما أهويت كفى لريبة ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأى عليها ولا عقلى

ولقد أنصف شاعر نجد الشيخ محمد بن عثيمين فى مدحه من قصيدة:

ليت الذى سكن الثرى ممن مضى من أهل بدر والبقيع المنور
نظروا صنيعك فى المدينة والتى يهوى إليها كل أشعث أغبر
كى يشهدوا أن الفضايل قسمت والفضل بين مقدم ومؤخر
ويسرهم إحياؤك الشرع الذى قد كان قبلك مثل روح مغرغر
عبّدت للملك العزيز تفاؤلا والفأل تؤثر عن شفيع المحشر
سر بديع كان فى إخفائه من قبل سعدك حكمة لم تظهر
وفضائل كنت الخليق بنشرها وترى الغبى بسرها لم يشعر
ظفر الحجاز من الزمان بغبطة بعد النبى وصحبه لم تخبر
أمنوا على أموالهم ودمائهم من بعد ما كانوا لأول مجترى
ولطال ما أخذ الفتى من بيته والبوم يمسى مصحرا لم يحذر
سلب الممالك أهلها بعزائم ينسى مضاها عزمة الإسكندر
فاسلم ودم للدين ردءاً ثابتا تدعو إلى سبل السلام الأكبر

وتـرد أعـداء الالـه بـغـيـظـهـم يتـجـرعـون كـؤوس دل أحـمـر

كان التحول الاقتصادى والسياسى فى الجزيـرة العربية فى خلال نصف قرن عملا فذا يفخر به أى إنسان، أما هو رحمه الله فقد كان يكره الأبهة والرسميات الكثيرة التى اضطر إلى أن يتنازل عنها ثـمنا لعظمته. وتحت وطأة حر صيف مكـة ١٩٥١م أخذت الشيخوخة وضعف الصحة تظهران عليه، فاضطر إلى أن يـستعمل الكرسى ذا العجلات فى انتقاله، وأصر بقـدر استطاعـته على الاحتـفاظ بالنـظام الذى درسه ووضعـه طول حياتـه فى أمر الاتصال بمرؤوسيه فى الوقت المعين، وقلما غادر قصوره الفخمة فى المربع الواقع شمالى عاصمة ملكه الرياض،

فكم لقى من الأهوال واقتحم المخاوف والأخـطار ولاقى الفرسان وهو من الرزايا فى حصن حصين إلى أن بلغ عشر الثمانين.

ولـم يكن لعبقرية المكان أثرها فى الاهتمام الفنى بالشعر عند الملك عبدالعزيز فحسب، وإنما كان لها أثرها فى اهتمامه بنشر بعض كتب السلف والخلف.

فيـذكر الزركلـى أن عبدالـعزيز قـد وجه عنايـة خاصة إلـى كتب الـعلوم الإسلامـية المخطوطة، فأمر بطبع طائفة منها وتوزيعها مجاناً.

من تلك الكتب:

التفسير- تفسير القرآن الكريم، للإمامين ابن كثير والبغوى ٩ مجلدات

أوضح البرهان فى تفسير أم القرآن للمعصومى

التاريخ- البداية والنهاية لابن كثير ١٤

طبقات الحنابلة، لابن أبى يعلى ١

روضة الأفكار (تاريخ ابن غنام) ٢ فى مجلد

الفتاوى- مجموعة الرسائل والمسائل النجدية. لجماعة من علماء نجد ٤

الدرر السنية فى الأجوبة النجدية لجماعة من علماء نجد	٤
مجموعة رسائل وفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية	١
مختصر الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية	١
مجموعة رسائل وفتاوى. لبعض علماء نجد	١
الفقه وأصوله- المغنى والشرح الكبير، لمرفق الدين وشمس الدين ابنى قدامة	١٢
الثلاثة الأصول والأربعة القواعد، للشيخ ابن عبدالوهاب	١
روضة الناظر، لابن قدامة، مع شرح لبدران	١
مجموعة المتون فى الفقه والتوحيد، لبعض علماء نجد	١
الحديث- كتاب السنّة، لعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل	١
مجموعة الحديث النجدية، لبعض علماء الحديث جامع الأصول، لابن الأثير	١٢
شريح تهذيب سنن أبى داود، لابن القيم	
معالم السنن، للخَطّابى	٨
مختصر السنن، للمنذرى	
الأدب- الآداب الشرعية، لشمس الدين ابن مفلح	٣
روضة المحبين، لابن قيم الجوزية	١
ديوان ابن سحمان	١
التوحيد- التوحيد وإثبات صفات الربّ عز وجل، لابن خزيمة	١
مجموعة التوحيد، للشيخ محمد بن عبدالوهاب وآخرين	١
فتح المجيد فى شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن	١

الهداية السنية، لسليمان بن سحمان	١
التوحيد الذى هو حق الله على العبيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب	١
العقيدة- شرح الطحاوية، فى العقيدة السلفية لأحد علماء الحنفية	١
الردود- الصواعق المرسلة، لابن قيّم الجوزية	٢
تلخيص الاستغاثة، لابن تيمية	١
الرد على المنطقيين، لابن تيمية	١
كشف غياهب الظلام، لسليمان بن سحمان	١
الضياء الشارق لسليمان بن سحمان	١
الصواعق الشهابية لسليمان بن سحمان	١
مصباح الظلام، للشيخ عبداللطيف بن عبدالحمن بن حسن	١
تأسيس التقديس، للشيخ عبدالله بابْطَين	١
كشف الشبهات، للشيخ محمد بن عبدالوهاب	١
خطب- خطب الإمام محمد بن عبدالوهاب، له ولبعض حفدته	١
مناسك- مناسك الحج على المذاهب الأربعة، لابن حسنس وابن مانع	١
تحفة الناسك فى أحكام المناسك لسليمان بن عبدالله	١
وعظ- النفحة القدسية، للشيخ أحمد الحفظى العسيرى	١
موضوعات مختلفة- إرشاد الطالب، لابن سحمان	
إيقاظ همم أولى الأبصار	١
تحفة السلطان للمعصومى	١
تقويم الأوقات لعرض المملكة العربية السعودية	١

وطبعت على نفقته كتب كثيرة فى الهند ومصر ولم يُذكر عليها اسمه إلاّ ما جاء على بعض مطبوعاته فى الهند من أنها طبعت على نفقة من قصده الثواب من رب الأرباب».

كما كان لعبقرية المكان أثرها فى الطبيعة الفنية فى شخصية عبدالعزيز، إلى أثر آخر يرتبط بنشر الثقافة ومساعدة ناشرى الكتب. فالزركلى يقول:

«ولدينا «عشرات» من كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب، القديمة والحديثة، أمر بشراء مجموعات منها، كبيرةً وصغيرة، لتوزيعها مجانا لا يعنينا استقصاؤها هنا. ونذكر بعضها على سبيل المثال:

التفسير - تفسير القرآن الحكيم، للسيد محمد رشيد رضا	١٢ مجلداً
تفسير سورة الإخلاص، لشيخ الإسلام ابن تيمية	١
الحديث - الفتح الربانى، فى ترتيب مسند الإمام أحمد، للساعاتى	١٢
السنن الكبرى، للبيهقى	١٥
جامع الترمذى، وشرحه تحفة الأحوذى	٤
المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابورى	٤
فيض البارى على صحيح البخارى، للكشميرى	٤
نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية، للزيلعى	٤
تذكرة الموضوعات، لمحمد بن طاهر الهندى	١
التاريخ - أخبار مكة، للأزرقى	٢
عنوان المجد فى تاريخ نجد، لابن بشر	٢
حياة محمد ﷺ للدكتور هيكل باشا	١
قلب جزيرة العرب، لفؤاد حمزة	١
تاريخ الكعبة المعظمة، للشيخس حسين باسلامة	١

تاريخ عمارة المسجد الحرام للشيخ حسين باسلامة	١
الفصول فى سيرة الرسول، لابن كثير	١
سيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لأحمد العطار	١
صقر الجزيرة لأحمد العطار	٣
الاجتماع- حاضر العالم الإسلامى، للأمير شكيب أرسلان	٢
لماذا تأخر المسلمون، للأمير شكيب أرسلان	١
الأحكام السلطانية لأبى يعلى الفراء	١
الفقه- كشاف القناع، لليهوتى	٦
شرح منتهى الإرادات. للبهوتى	٣
زاد المستقنع، لشرف الدين الحجاوى	١
عمدة الفقه لموفق الدين ابن قدامة	١
مناقب- مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزى	١
العقود الدرية فى مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية لابن عبدالهادى	١
متفرقات- الفروسية، لابن قيم الجوزية	١
عمدة الأخبار فى مدينة المختار، لأحمد بن عبدالحميد العباسى	١
يسر الإسلام، للسيد محمد رشيد رضا	١
تاريخ القرآن الكريم وغرائب رسمه وحكمه، لمحمد طاهر الكردى	١
خديجية أم المؤمنين، للسيد عبدالحميد الزهراوى	١

ويؤكد الشاعر محمد حسن عواد هذه الخاصية الفنية فى شخصية الملك عبد العزيز[١] فى قوله :

---

(١) البلاد الأحد ٢٨ شعبان سنة ١٣٩٤هـ.

«كان تأسيس المملكة العربية السعودية، فى عهد المغفور له الملك (عبدالعزيز) خطوة كبيرة إلى تجديد شامل للحضارة والتمدين، كما كان خطوة أولى للاتحاد العربى الذى قلت عنه يوم ذاك هذا المقطع الشعرى من قصيدة:

إلى الاتحاد المتاح

فثم اتحاد أجل

وذى خطوة للأمانى

تليها خطى لا تمل

سيعقد فيها اللواء

اللواء الذى لا يحل

لواء العروبة جمعاء يخفق فى الكائنات

فتهفو إليه الدول»

كان آخر أعماله رحمه الله فتحه الخط الحديدى فى تشرين الأول عام ١٩٥١م كما حضر بعض الحفلات الرسمية فى الطائف فى أواخر صيف ١٩٥٣، وكان قد سافر إليها فى طائرة «سكاى ماستر»، طائرته الخاصة.

وفى النصف من تشرين الأول أصيب بنوبة قلبية خطيرة أحدثت قلقا عاما بين صفوف شعبه وتواردت عليه البرقيات من رؤساء الدول العربية والأجنبية على اختلاف أنواعها، وعندما شفى حضر بعض المجتمعات العامة المعتادة. غير أن عودة المرض اضطرته أن يلازم غرفته، وهناك فى الساعة الثالثة صباحا فى اليوم الثالث من ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ توفى رحمه الله، ونقل جثمانه من الطائف إلى العاصمة، الرياض، على متن طائرة ودفن فى مقابر آبائه وأجداده.

لعمرك ما الرزية فقد مال ... ولا فرس يموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد حر ... يموت لموته خلق كثير

وإذا كانت البساطة قرينة التغيير، وعدم التداخل شرط التجدد، فإن شيئين يملآن على العربى حياته وحواسه، النهار المشرق الواضح الذى يملأ البسيطة ويحيلها إلى بياض ساطع، والليل الذى يرخى سدوله ويلقى بظلمات بعضها فوق بعض، إنها الظلمة وإنه النور، ولكل منهما حدوده، فلا يبغيان، والعربى لا يخلط بينهما، لأنهما متباينان أشد التباين، ولكن تباينهما يعطى جمالا.

والأشياء تعرف بأضدادها، فالنور يزيل الحيرة[1]، ولذلك تمثل الملك عبدالعزيز من عبقرية المكان قسمات شخصية العربى، فهو صريح لا يعرف الالتواء، وسليم الطوية لا يعرف الاعوجاج، وهو لذلك كما سبق أن قلنا أدرك بفطرته ما يمكن أن تتعرض له الجزيرة من خطر «الخير- الشر» حين يختلطان ويمتزجان، وهو الخطر الذى نبه إليه الرسول ﷺ مرة على المنبر حين قال لأصحابه «إنى أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» «فتعجب أحد الحاضرين وقال: «أو يأتى الخير بالشر يا رسول الله؟ «فسكت الرسول فترة، ثم أفاق يمسح عنه الرخصاء، واستفسر عن السائل وكأنه يحمد له هذا السؤال، ونفى أن يأتى الخير بالشر[2].

وفى تقديرنا أن الدور العظيم الذى قام به الملك عبدالعزيز بازاء الدعوة السلفية التى جددها الإمام محمد بن عبدالوهاب يمثل تجديد صورة الشخصية الإسلامية فى العصر الحديث، لأنه بذلك يحمى الدين والعروبة؛ ويحارب البدع والمنكرات والضلالات بكل ما أوتى من قوة؛ لم تأخذه فى الله لومة لائم؛ جاهد فى الله حق جهاده.. ذلك أن الدعوة السلفية بكل المقاييس العلمية والموضوعية؛ إنما تصحح صورة الفكر الإسلامى. ولذلك وجدنا فيلسوفا مسيحيا هو «بابل» يشهد فيما نقله عنه» جوستاف لوبون»[3] حين يقول:

---

(١) د. عبدالحميد إبراهيم: المرجع السابق، ص٥٨

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٩- لسان العرب «حبط» وأسنده إلى أبى سعيد الخدرى.

(٣) جوستاف لوبون: الحضارة الإسلامية ص ١٥٨

«إن من الضلال أن يُعزى انتشار الإسلام السريع فى أنحاء الدنيا إلى أنه يلقى عن كاهل الإنسان ما شق من التكاليف والأعمال الصالحة.. فقد دون «هوتنجر» قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين، فرأى- مع القصد فى مدح الإسلام- أن تلك القائمة تحتوى على أقصى ما يمكن أن يؤمن به إنسان، من التحلّى بمكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام»(١).

(١) نفس المرجع ص ١٥٨.